القطاعات الانتاجية في دولة بني مرين ودورها في تنشيط الحركة التجارية

د.فؤاد طوهارة
استاذ محاضر-قسم التاريخ- جامعة ٨ ماي ١٩٤٥-الجزائر
touharaf@yahoo.fr

الملخص

يعتبر الاقتصاد أحد دعائم البنية الأساسية للدولة المرينية بما له من قطاعات متعددة ذات تأثير مباشر على الفعل الاجتماعي والاقتصادي إن على مستوى الأفراد والجماعات أو في محيط الأرياف و المدن.

لقد ساهم خلفاء بني مرين خلال فترات حكمهم في الاهتمام بشكل جدّي بالقطاعات الانتاجية للاقتصاد المريني كهدف رئيسي لإنماء الموارد الطبيعية المختلفة التي تزخر بها أرض المغرب زراعية كانت أو صناعية مما ساعد على ازدهار وتطور الزراعة ، وتنوع الصنائع والحرف ، و عمران الأسواق وتنشيط الحركة التجارية والاقتصادية في مدن الدولة وخارجها.

Productive sectors in- The Marinian State
And its role in revitalizing commercial traffic

Touhara fouad
University of 8 May 1945
Guelma-Algeria

Abstract

The economy is one of the pillars of State infrastructure the Marinian (668-869/1269-1465 m) with its multiple sectors with a direct impact on social and economic act to individuals, groups or in the vicinity of the countryside and the cities

-Marinioon successors has contributed during their rule in the serious attention of the productive sectors of the economy as a key objective for different natural resources development of agricultural industrial or Morocco land which helped Imran markets and already activated in cities and outside the State

مقدمة :

شكلت القطاعات الانتاجية في المغرب الأقصى خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي دعامة حقيقية للاقتصاد المريني ، وذلك راجع أساسًا إلى اهتمام سلاطين بني مرين بمختلف الأنشطة الاقتصادية كالفلاحة والصناعة والتجارة ومحاولة النهوض بها ، مما ساعد على عمران الأسواق وتنشيط الفعل الاجتماعي والاقتصادي داخل المدن وخارجها .

وعلى الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لمرحلة هامة من تاريخ المغرب الأقصى، إلا أنه لم يحظ بالعناية الكافية من قبل الباحثين ، وهو الأمر الذي دفعنا للكتابة فيه كمساهمة بحثية للكشف عن كثير من القضايا الاقتصادية في تاريخ المغرب الأقصى .

الفرع الأول : الزراعة

أولا : عوامل إزدهار قطاع الزراعة

إهتمت الدولة المرينية بقطاع الزراعة إهتمامًا كبيرًا وأسهمت بطرق مختلفة في تطويرها وإزدهارها ، وقد ساعدها في ذلك عوامل مختلفة في مقدمتها : وفرة مصادر المياه ، وجودة التربة ، وتنوع المناخ الذي كان له أثر واضح في زيادة كمية الإنتاج وتنوع المحاصيل والثمار . (١)

وقد نوّه المراكشي بخصوبة أرض المغرب قائلا : « وهي أخصب رقعة على الأرض فيما علمت وأكثرها أنهارًا مطردة وأشجارًا ملتفة وزروعًا وأعنابًا . » (٢)

ومن أشهر مصادر المياه في المغرب الأقصى تلك الأنهار(٣) المنتظمة الجريان التي لايقل ماؤها ولايتقطع شتاءًا ولاصيفًا ، ومنها على سبيل المثال نهر الجوهر (واد فاس) الذي وصفه الجزنائي بقوله :

« وله منظر جميل لصفائه وإنهماله على الرضراض ، فيجتمع مايخرج من تلك العناصر من المياه فيصير نهرًا كبيرًا يجري في بسيط من الأرض ...وحواليه مروج مخضرّة ، لاتزال كذلك في جميع فصول السنة ، إلى أن ينحدر إلى البلد فينقسم في داخلها على جداول كثيرة ، فيشق أكثر جهاتها ، ويتشعب في داخلها ، فينتفع به في مساجدها وسقاياتها ودورها وأرجائها وحماماتها وسقي جناتها . » (٤)

إلى جانب حيوية وإنتظام جريان هذه الأنهار ، ينعم المغرب الأقصى بالآبار والعيون الطبيعية المتصفة بالغزارة والتي توفر للزراعة الكثير من المياه [٥]زيادة على مياه الأمطار ، ولكن الأمطار غير منتظمة في أوقاتها أو تواليها ، فقد تتوالى أيامًا وشهورًا ، وربما تحتبس لمدة عام كامل أو أعوام منصلة . [٦]

وزيادة على ذلك فقد ساهم سلاطين بني مرين في خدمة الأرضي وإحيائها من خلال إعادة توزيعها على القبائل الموالية للسلطة ، وعلى كبار الأعيان والفقهاء ، والأسر الكبيرة . [٧]

لقد إنعكست هذة العوامل بصورة إيجابية على الحياة الإقتصادية ، حيث عم الرخاء وأنخفضت أسعار المواد الغدائية ، فقد قيل أن السنة التي بويع فيها السلطان أبو يوسف يعقوب (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م) بيع فيها القمح بستة دراهم والكبش بخمسة دراهم والشابل وحدة بقيراط ، وهو مايفسر كثرة الإنتاج وإنخفاض الأسعار ، وأستمر الرخاء على ماهو عليه في عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ/ ١٢٨٦ - ١٣٠٦ م) . [٨]

ثانيًا : نظام الري

تعنمد أراضي المغرب الأقصى على مصادر متعددة في عملية الري لمختلف مزروعاتها ، خاصة مياه الأنهار التي لاتكاد تنقطع ، فنهر سبو وهو نهر عظيم يخترق مدينة فاس ويتشعب في داخلها ، يشّكل جداولاً وخلجانًا ، تستغل لسقي الجنان والبساتين . (٩) هذا إلى جانب إحتواء أرض المغرب على عدد من العيون الطبيعية ذات المياه العذبة ، يصفها الزهري بقوله : « وكذلك في هذا الصقع مدينة فاس ... فيها أعين كثيرة ومياه غزيرة عذبة ، يقال أن أعينها على عدد أيام السنة ... وهي كثيرة الزرع والضرع والجنان والرياض . » (١٠)

وكان لإرتفاع الجبال المجاورة لفاس أهمية في سقوط الأمطار وتكوين الثلوج ، فنهر سبو الذي تسقى منه مدينة فاس منبعه من عيون جبال صنهاجة ، وهي مصدر توزيع المياه في المغرب الأقصى (١١)أما نهر تانسيفت فيستمد مياهه من العيون المنبعثة من أعالي جبال درن من ناحية مدينة أغمات . (١٢)

ولتنظيم عمليات الري إعتمد بنومرين على غرار أسلافهم على توفير المياه للمزروعات بشكل منظم من خلال حفر الآبار ، وسحب مياه الأنهار وتخزينها في برك وصهاريج معدة للسقي .(١٣)

وتشير المصادر أن سعة الصهاريج والمخازن المعدة للسقي كانت كبيرة جدًا ، لضمان إستمرار عمليات السقي خاصة في أيام القحط والجفاف . (١٤)

وخلافًا للصهاريج ، تم حفر الآبار خاصة في المدن والمناطق التي عرفت بقلة مياهها ، حيث يوجد الماء قريب من السطح يستخرج ليسقى منه في عدة أماكن بسهولة (١٥)، وهو ماذهب إليه الإدريسي بقوله : « ولم يزل الناس يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات . » (١٦)

وللإستفادة من مياه الأنهار والعيون و الآبار ، إستخدم سلاطين المغرب وسائلاً متعددة ، فكانت الروافع و السواقي من أكثر وسائل الري إنتشارًا في مدن المغرب الأقصى (١٧)يصفها مارمول بقوله : « وفي خارج أسوار فاس الجديد ، يرفع ماء النهر بواسطة عجلات تحمل الماء فوق الأسوار، ويوزع من هناك على قصور ، وحمامات ، وبساتين المدينة كلها ، ويوجد مثل ذلك في سهل طليطلة ، حيث يرفع ماء النهر الطاج لسقي البساتين ... وهذه العجلات التي ترفع الماء موضوعة على جانب النهر في قناة ضيقة جدًا ، ليديرها الماء الذي يدخل بقوة في القواديس المحيطة بها بسرعة أكثر ، وعتدما تكون في الأعلى ، تصب الماء لدى

نزولها ، لكي تقضي ساعة كاملة لإنمام دورة واحدة ... وقد كان أهل فاس في القديم يجلبون ماء العين التي تسيل الآن تحت الأرض عبر قنوات . » (١٨)

ويضيف لوترنو شرحًا آخر لأحد نظم السقي المعتمدة في حدائق سلاطين بني مرين بقوله : « وقد كان لأحد سلاطين بني مرين ، ولعله السلطان أبو يوسف، حديقة ملكية ...وقد كان فيها بركتان (صهريجان) لاتزال بعض آثارهما قائمة إلى الآن ، وكانت البركتان لري الحديقة كما كانت مبعث سرور السلطان وجلسائه، وكانت توصل المياه إليهما ناعورة ضخمة كانت تقوم على مقربة من باب السباع ، فكانت الناعورة ترفع المياه من النهر إلى القناة تحمله بدورها إلى البركتين ، ولاشك في أن المكان كان رائعًا لما نمت الأشجار وأينعت الزهور . » (١٩)

ثالثًا : المحاصيل الزراعية

١- الحبوب :

إشتهرت مدن المغرب الأقصى بزراعة الحبوب على إختلاف أنواعها خاصة ذات الإستهلاك الواسع من قبل السكان ، وتأتي في مقدمتها : القمح ، والشعير ، والحنطة ، والقطان ، والبقول الجافة : كالفول ، والسلت ، والحمص ، والعدس ، والأرز ، والسمسم . (٢٠)

ذكرها القلقشندي بقوله : « ففيها من أنواع الحبوب ، القمح ، والشعير، والفول ، والحمص ، والعدس ، والدّخن ، والسلت ، وغير ذلك ، أما الأرز فإنه عندهم قليل ، بعضه يزرع في بعض الأماكن من برّ العدوة ، وأكثره مجلوب إليهم من بلاد الفرنج ، على أنهم لا نهمة لهم في أكله ولا عناية به ، وبها السمسم على قلة ، ولايعتصر منه بالمغرب شرج لإستغنائهم عنه بالزيت . » (٢١)

ومن أهم المناطق التي إنفردت بزراعة أنواع محددة من الحبوب ، مدينة فاس التي كانت توجد بها حقولاً كثيرة صالحة للزراعة خاصة في منطقة جبل زلاغ – على بعد خمسة فراسخ من فاس – تسقى بماء النهر بواسطة الناعورات وكان يعمل في هذه الحقول سكان الجبل ، ويمتلك أعيان فاس أكبرحصة من أراضيهم في هذه المنطقة ، أما حقول القمح الواسعة فقد إنتشرت في سهل الجبل المطل على فاس من ناحية الشرق ، وفي غرب فاس حيث سهل السايس (٢٢) وأمدت منطقتي أزغار وبني ومود مدينة فاس بالكثير من غلال القمح التي كانت تحصد بهما . (٢٣)

كما إشتهرت مدن : مغيلة ،سجلماسة ، البصرة ، ولطيفة ، وطنجة ، وأزيلي ، ولطيفة ، وماسيتة بزراعة

القمح ، والشعير ، والحنطة ، والقطان ، ويعود الفضل في ذلك لخصوبة أراضيها السهلية ، وكثرة مياهها ، وشساعة حقولها .(٢٤)

ومما يدل على وفرة الإنتاج من الحبوب بمدن المغرب ، تلك المخازن التي أقامها السلاطين كمطامير لتخزين الحبوب خاصة القمح والشعير والحنطة ، إما لفائض الإنتاج أو لوقت الحاجة ، ويصف القلقشندي هذه المطامير بقوله : «وهي مكان يستدير عليها سور منيع عليه باب، وغلق داخله المطامير . » (٢٥)

٢- القطن والكتان ومحاصيل أخرى :

زرعت في غرب مدينة فاس مساحات واسعة من القطن والكتان ، خاصة في السهول والحقول المجاورة للمدينة ومما ساعد على ذلك خصوبة أراضي فاس لإنتاج هذه المحاصيل ، مع توفر إمكانات السقي الهائلة وملاءمة المناخ . (٢٦)

و يضاف إلى مدينة فاس ، مدينة سلا التي ذكرها إبن الخطيب في معياره بقوله : « وفي نواحي سلا كان يزرع القطن والكتان . » (٢٧) ، وبالقرب من مدينة أغمات تجد مدينة داي التي لاتبعد عنها سوى أربعة أيام ، إشتهرت بكثرة مزارعها وتنوع محاصيلها خاصة نبات القطن ، ولكن مدينة تادلة التي لا تبعد عن تادلة

سوى مرحلة واحدة يزرع بها القطن بكميات كبيرة ، توجه للمدن المجاورة قصد إستغلالها . (٢٨)

كما إشتهرت مدينة سبتة ،وسلا، والسوس ، ومراكش بزراعة قصب السكر (٢٩) في حين إشتهرت منطقة مغيلة بمحاصيل أخرى كالقنب ، والبابونج ، والكرويا ، والكبّار التي تحمل إلى مدينة فاس لبيعها . (٣٠)

٢- الفواكه و الخضر والرياحين :

تنتج أرض المغرب الأقصى أنواعاً مختلفة من الفواكه اللذيذة ،طيبة المذاق حددها القلقشندي بقوله :« فيها أنواع الفواكه المستطابة ، اللذيذة ، المختلفة الأنواع ، بين النخل ، والعنب ، والتين ، والرمان ، والزيتون ، والسفرجل، والتفاح على أصناف ، وكذلك الكمثري ... وبها المشمش ، والبرقوق ، والقراصيا ، والخوخ ، وغالب ذلك على عدة أنواع ، والتوت على قلة ، والجوز ، واللوز ، ولايوجد بها الفستق ، والبندق إلاّ مجلوبًا ، وبها الأترج ، والليمون ... وبها البطيخ الأصفر ، والأخضر...وأما رياحينها، ففيها الورد ، والبنفسج ، والياسمين ، والآس ، والنرجس ، والسوسن ، والبهار ، وغيرذلك . » (٣١)

ومن بين مدن المغرب الأقصى ، إنفردت فاس بأصناف مختلفة من الفواكه التي لاتوجد في غيرها من البلاد إلاّ متفرقة في أقاليم شتى ، في حين توجد في فاس مجتمعة في غاية الحسن والطيب ، وتميزت عدوة القرويين بفواكه الخريف ، وعدوة الأندلس بفواكه الصيف [٣٢] ، ويوضح ذلك إبن أبي زرع بقوله : « وبها (عدوة القرويين) الرمان السفري الذي ليس في المغرب مثله حلاوة ولذة وولادة ، والتين الشعري ، والسبتي الطيب الحسن ، والعنب ، والخوخ ، والجوز، والعناب، والسفرجل، والأترج ، وسائر الفواكه الخريفية ، تأتي في عدوة القرويين في نهاية الطيب والحسن والحلاوة ، وتختص عدوة الأندلس أيضًا بحسن الفواكه الصيفية وطيبها ، كالتفاح الطرابلسي الحلو الأصفر ، الذي ليس مثله في جميع المغرب لحسنه وحلاوته ، ولذة مطعمه وخفته، ورقة قشره، وطيبة رائحته، وإعتدال خلقته ، والتفاح الليوبي، والطلحي، والكلخي، وأصناف الكمثري، والمشمش، والبرقوق ، والتوت، كل ذلك بها في نهاية الطيب والحسن.»[٣٣]

وشملت بساتين وجنان المغرب أنواع مختلفة من فاكهة العنب الذي تميزت زراعته بوفرة الإنتاج وجودته ، حيث إشتهرت مدينة فاس بوجود جبل يسمى جبل

العنب على بعد نحو ميلين منها ، وقد عرف بهذا الإسم لأنه كان يوجد بسفحه كثير من أشجار العنب والكروم. (٣٤)

أما مدينة سجلماسة وبفضل موقعها المتميز فقد إشتهرت بكثرة تمورها من العنب ، والزبيب ، والرمان ، وفواكه أخرى (٣٥) ، وعلى نهر صغير نجد مدينة الحمر التي تبعد عن العرائش بأربعة عشر ميلاً ، كلها أراض جيدة محاطة بكروم ذات أعناب شهية . (٣٦)

وعلى الرغم من عدم صلاحية أراضي مدينة طنجة لزراعة الحبوب ، إلاّ أنها تكثر فيها الحدائق التي تنتج البرتقال والليمون وبعض الكروم وغيرهما من الثمار. (٣٧)

ويضيف إبن غازي ماتنتجه مدينة مكناسة من أنواع وأصناف الفواكه بأسمائها المختلفة بقوله : « أما مدينة مكناسة فهي بلدة خصيبة ، ذات عيون وأنهار وثماركثيرة وأشجار ، وهي كثيرة الفواكه والمزارع فيها أنواع كثيرة من الهلالج المسمّى بغرب الأندلس العبقر ، ويسمونه كذلك البرقوق ، لايكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيبًا ، وفيها المشمش ... وفيها أنواع من التفاح طيبة من جملها نوع يسمى الطرابلسي حلو عطر يعقد مرتين في العام ... وفيها أنواع كثيرة

من الإجاص ، وفيها سفرجل كثير طيب حلو وحامض ، ويركب التفاح فيه فيجود ، ويركب فيه أيضًا الإجاص وفيها أنواع من الرمّان كثيرة طيبة كالسفري ، والراهي ، وميمونة ، والنعيمي ، والأخضر ، ورمانها القديم صنف يقال له القابسي ، وهو جليل شديد الحلاوة ...وفيها الجوز ، والخوخ ، وفيها أنواع العنب الأبيض والأسود كثير طيب يطبخ ولايزّبب ، وفيها من التين أنواع منها الشعري ، والسبتي ، والإنبضار، وغير ذلك من أنواع التين كالأشكوز ، والشبلي ، والحمراء ، والغذان ، والحافر ، والنقال ، وغيرها ويجلب إليها البلوط الجليل الحلو ، وأما الزيتون فهو فيها كثير جدًا لذلك أضيفت إليه (مكناسة الزيتون) وأشتهرت به ...وفيها أرض بيضاء للخضر والكتان.» (٣٨)

وإلى جانب هذه المحاصيل ، شهت أراضي المغرب الأقصى زراعة شتى أنواع الخضر للإستهلاك اليومي ، وقد ذكر القلقشندي بعضًا منها وهي : « الخيار ، والقثاء ، واللفت ، والبادنجان ، والقرع ، والجزر ، واللوبيا ، والكرنب ، والشمار، والصعتر ، وسائر البقول . » (٣٩)

رابعًا : الثروة الحيوانية

إهتم سكان المغرب بتربية أنواع كثيرة من الحيوانات والدواب ، بهدف إستغلالها في حياتهم المعيشية ، كواسطة نقل رئيسية و إحدى وسائل الري والفلاحة ، زيادة على قيمتها الغذائية (٤٠) وقد عددّ القلقشندي مواشي المغرب الأقصى بقوله : « وأما مواشيها ، ففيها من الدواب الخيل ، والبغال ، والحمير ، والإبل ، والبقر ، والغنم ، أما الجاموس فلايوجد عندهم ... وأما الطير فيها منه الإوز ، والحمام ، والدجاج ونحوها ، والكركي عندهم كثير على بعد الدار ، وإسمه عندهم الغرنوق ، وهو صيد الملوك ...وفيها أيضًا النعام والغزال والمها . » (٤١)

كذلك كانت أنهار المغرب مصدرًا لتزويد السكان بمختلف أنواع الأسماك ، ويعد نهر سبو الذي يمر وسط مدينة فاس أحد أهم الأنهار للثروة السمكية ، ذكرها الجزنائي ، حيث يخرج من هذا النهر أنواع من الحوت اللبيس ، والبوري ، والسيناخ ، والبوقة ، ووصفت هذه الأنواع بأنها لذيذة الطعم كثيرة المنفعة . (٤٢)

وكانت الكميات التي تخرج من هذا النهر وفيرة ، وتصل إلى مدينة فاس بأحمال كثيرة ، وقد أشار إليها صاحب كتاب الإستبصار بقوله : « ويتصيد في هذا الواد الشابل الكبير ... والحوت الكثير ، كما يتصيد في

بعض الأحيان البوري الكبير، وذكر الثقات أنه بيع واحد منه بثلاثة عشر درهمًا ، والرطل الكبير منه بدرهم ونصف ، كما يصل إلى فاس الحوت الكبير المسمى عندهم بالقرب يحمله الحمار، وبه أنواع اللبس ، والشولي . » [٤٣]

الفرع الثاني : الصناعة

إزدهرت الصناعة في المغرب الأقصى خلال العصر المريني بفضل توفر دعامتين أساستين ، يتعلق الأمر بوفرة المواد الخام سواء كانت معدنية أو نباتية أو حيوانية ، ووفرة اليد العاملة المؤهلة ذات الخبرة والمهارة التي تجمعت لدى العامل المغربي عبر السنين [٤٣] ، ضف إلى ذلك ماورثه بنومرين من قاعدة صناعية خلفها أسلافهم الموحدون . [٤٤]

أولا : المواد الخام

إرتبط تقدم الصناعة وإزدهارها بمدن المغرب الأقصى ، بمدى وفرة المواد الخام خاصة المعدنية منها ، ويذكر الونشريسي أن بلاد المغرب إشتهرت ببعض المعادن ، من أهمها الملح الذي كان يستخرج من صحراء المغرب ، من ذلك أن : «قومًا بصحراء

المغرب كان لهم معدن (أي منجم) ملح يستخرجونها من جوف الأرض ويقطعونها ألواحًا كألواح الرخام ... وألواح الملح هي معضم تجارتهم ، حيث كانوا يحملونها من بلد إلى آخر ، ولاغنى لجميع بلاد المغرب عنها . » (٤٥)

ويؤكد البكري ماذكره صاحب المعيار بقوله : « ومن غرائب تلك الصحراء معدن الملح ... ويسمى هذا المعدن تاتنتال ... ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان . » (٤٦)

و تذكر المصادر الجغرافية، وفرة معدن الحديد والزئبق بجبل قرب مدينة أرزوا، كما إشتهرت مدينة طنجة بالرخام والأحجار الكريمة ومختلف أصناف الجواهر . (٤٧)

أما مدينة داي الواقعة بالقرب من جبل درن فتتوفر على معدن النحاس الخالص بكميات كبيرة ، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله : « وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لايعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها ، وهو نحاس حوّل لونه إلى البياض يتحمل التزويج ، ويدخل في لجام الفضة ...وهذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف فيه في كثير من الأعمال . » (٤٨)

ويشير الزهري إلى وجود معدن الفضة بالقرب من واد أم الربيع بأنواعه المختلفة من غوان وركناس [٤٩]

ويذكر صاحب كتاب الإستبصار وفرة معدن الفضة والحديد والنحاس ، في منجم عوام الشهير القريب من مدينة فاس . [٥٠]

كذلك كان الذهب يجلب من منطقة أودغست جنوب المغرب الأقصى ، ويعتبر ذهبها من أجود ذهب الأرض ، هذا إلى جانب معدن الياقوت المستخرج من جبل هزرجة من بلد هكسورة. [٥١]

كما توفرت مدن المغرب الأقصى على مادة الأخشاب بفضل إنتشار الغابات الكثيفة ذات الأنواع المختلفة من أشجار البلوط ، والأرز ،[٥٢] وغيرها هذا إلى جانب وفرة الورود ، والأزهار، والرياحين التي تستخدم كمادة أولية في صناعة العطور والروائح الطيبة [٥٣] .

ثانيًا : بعض أنواع الصنائع والحرف

١- صناعة النسيج :

تحتل صناعة النسيج والحياكة مركز الصدارة بين أنشطة المدينة الإقتصادية في المغرب الأقصى ، نظرًا لإرتباطها الوثيق بالإحتياجات الهامة للسكان المغاربة و متطلباتهم من الأغطية ، و الألبسة، والأثواب من جهة ،

وتوفر المادة الخام من القطن والكتان من جهة أخرى . (٥٤)

وتشير المصادر إلى إزدهار صناعة النسيج من الكتان في أماكن خاصة من مدينة فاس (٥٥) ويتعلق الأمر بصناعة الشرائط الغليظة والقلاع من شقق الكتان التي كان يتم تبطينها ، والتي كانت تستخدم في تغطية صحون المساجد والمساحات العامة من الشمس كما هو الحال بالنسبة لمسجد القروين بفاس ٥٦)

كما إزدهرت صناعة النسيج من القطن والحرير ، مثل الأشرطة والشرّبات التي توضع على صدور الخيل مع عدة السروج وكلالهما مصنوع من مادة واحدة ، و الأقمشة الرقيقة ، ورباطات الحريرالخام ، والفرش ، والوسائد ، والزرابي المزركشة بالذهب والحرير . (٥٧)

وأرتبط بهذه الصناعة فن صباغة الأقمشة ، ومما يؤكد ذلك وجود عدد من الصباغين الذين كانت لهم أماكن على جانبي التهر على مقربة من جسر الصباغين ، وكان هؤلاء يستعملون في الصباغة موادً معدنية الأصل ، كانت توجد على مقربة من مدينة فاس وكانت تهيأ في دكاكين خاصة بها . (٥٨)

وكانت فئة الذباغين ذات أهمية كبيرة في الصناعات الجلدية ، فهم الذين يزيلون الشعر عن الجلود

، ويعدون المساحيق اللازمة للذباغة ، ثم يقومون بذبغ الجلود (٥٩) إذ يهيأونها لصناعة الأدوات الجلدية كأكياس النقود ، وأحزمة الجلد المزخرفة بالحرير الملون ، وأنواع من الأزمّة المذّهبة لقيادة الخيل ، كما كان الإسكافيون يصنعون أحذية مطرزة ، إلى جانب الإخفاف والنعال المزخرفة بالجلد والحرير . (٦٠)

٢- صناعة الزيوت وبعض المواد الإستهلاكية :

إشتهرت بعض مدن المغرب الأقصى على غرار مدينة فاس ، ومكناسة بزراعة مساحات شاسعة من أشجار الزيتون (٦١)، حيث تنقل أحمال كثيرة إلى عدد من المعاصر أين يقوم الصناع بإستخراج زيت الزيتون بطرق مختلفة ، إمّا عن طريق العصر أو الطحن أو الغلي . (٦٢)

ففي مدينة فاس : « كانت ثمة جرن حجري ، يقوم في وسط فسحة في البيت أو في عرصته ، يوضع فيه الزيتون ، وثمة رحى طاحون تقام على زاوية قائمة من سطح الجرن وتدور فيه فتهرس الزيتون ، وهذه الرحى كان يديرها حيوان يدور بالجرن طول النهار ، ويحمل الزيتون المهروس ، بعد أن يكون قد أخذ منه بعض الزيت ، في سلال من الحلفاء إلى المكابس

لعصره ، والمكابس كانت مصنوعة من خشب الزيتون بإطارها وألواحها ولولبها . » (٦٣)

أما عن أماكن تواجد معاصر الزيتون بمدينة فاس ، فيشير إلى ذلك تورنتو بقوله :« وكانت معاصر الزيتون تقوم على مقربة من البابين اللذين كانت أحمال الزيتون تدخل منهما - باب الجيسة وباب الفتوح - إلاّ أن المعاصر القريبة من باب الجيسة كانت أكثر عددًا ، وكانت هذه توازي الأسوار . » (٦٤)

وبفضل كمية الإنتاج الوفيرة من الزيوت إزدهرت صناعة الصابون ، في حوانيت خاصة (٦٥) لاسيما الصابون الأسود الذي لايوجد غيره بإفريقيا ، ثم يحمل بعد ذلك مباشرة إلى السوق الذي سمي بإسمه و يظم أزيد من خمسين دكان لبيع الصابون . (٦٦)

أما صناعة السكر فقد إنتعشت في بعض المدن التي إرتبط إسمها بزراعة قصب السكر على غرار مدينة سلا ومراكش ، أين يعصر ويصنع منه القند ، ومن القند يكون السكر على أنواع ، ويصنع منه كذلك المكرّر الفائق ، ونظرًا لشهرة عسل النحل وكثرته بهذه المدن فإن السكرلم يكن يستعمل إلاّ للغرباء أو المرضى. (٦٧)

وكانت في مدينة مراكش لوحدها أربعون معصرة لصناعة السكر ، حتى أن حمل الحمار من هذا القصب كان يباع بدرهم لوفرته . (٦٨)

٣- الصناعات المعدنية :

شهدت مدن المغرب الأقصى تطورًا كبيرًا في الصناعات المعدنية في العصرين المريني والوطاسي ، بفضل وفرة المواد المعدنية ، وتتعدد إستخدامات هذة الصناعة مدنيًا وعسكريًا

وقد كان للصناع اليهوذ حظهم في بعض الصناعات المدنية ، خاصة ماكانت مادته الفضة والذهب ومعادن أخرى « حيث يحتكرون صناعة المماشط لتمشيط الصوف ، وصناعة الحلي ، فكانت الأساور، والخلالخيل والأقراط ، والأطواق، والخواتم الذهبية، والفضية ، من الأشياء التي يقتصر صنعها عليهم.»(٦٩)

كما إستخدم معدن الحديد والنحاس في صناعة الأنابيب لسحب المياه إلى المدن أو توزيعها على الأحياء ، وتم إستخدام الرصاص في تلبيس الصهاريج ، وفي صناعة قواديس لجر المياه (٧٠) وأستخدم النحاس في صناعة الخصة والأنابيب التي تصب الماء ، فصنعت بجامع القرويين خصة من نحاس أحمر مموه

بالذهب ، قامت على ساق من نحاس منقوش يبلغ طوله خمسة أشبار من الأرض ، وتفنن صناع فاس في ذلك فقسموا الساق إلى نصفين ، يصعد الماء من نصف منها فيفور في وسط الخصة من تفاحة فيها عشرة أنابيب ، كما صنعت أكواب مموهة بالذهب بسلاسل من نحاس دائرة بها يشرب الناس منها . (٧١)

كما صنعت ثرية جامع القرويين في فاس من النحاس مؤلفة من خمس مائة وتسعة قنديل تزن (١٧,٥ قنطارًا و ١٣ رطلاً من النحاس . (٧٢)

ومن الصناعات الدقيقة التي برع فيها علماء بنو مرين ، صناعة الساعات والإسطرلابات ، ففي سنة (٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) ، صنع المعدل محمد إبن الحباك(٧٣) ساعة لمعرفة الوقت وهي عبارة عن « بدن من فخار بالقبة العليا وفيه الماء، وجعل على وجه الماء طنجيرًا من نحاس فيه خطوط وأثقاب ، ويخرج منها الماء بقدر معلوم إلى أن يصل للخطوط فتعلم بذلك أوقات الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها . » (٧٤)

وصنعت ساعات أخرى كتلك التي صنعها المعدل أبو الحسن علي بن أحمد التلمساني (منجانة) ، للسلطان أبي عنان المريني سنة (٧٥٨ هـ/ ١٣٥٦ م) «بطيقان وطوس من تحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة

(المدرسة البوعنانية) التي أحدثها بسوق القصر من فاس ، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنتفخ طاق . » (٧٥)

كما إهتمت الدولة المرينية بسك النقود المعدنية ، ووضع علامة السلطان عليها للدلالة على جودتها وكونها ذات عيار ثابت (٧٦) وأقامت لذلك مراكزًا لصناعة السكة وضرب النقود في كل من فاس ، وسجلماسة ، ومراكش ، وأزمور ، ومكناس وغيرها (٧٧) ، وكانت القطعة المستخدمة تتألف من الدينار الذهبي ، والدينار الفضي ـ والدرهم الكبير ، والدرهم الصغير ، أما عن الشكل فقد كانت العملة مستديرة وبداخلها مربع وسط دائرة تحيط به دائرة أخرى تتكون من نقط ، وبداخل المربعات عبارات دينية . (٧٨)

الفرع الثالث : التجارة

إرتبط النشاط التجاري في مدن المغرب الأفصى بما أقامه سلاطين بنو مرين وبنو وطاس من تنظيمات تجارية تتعلق بإقامة المنشآت ، وترتيب الأسواق الداخلية منها والخارجية ، وضبط المكاييل والموازين ، و تحسين طرق الجباية ، ومراقبة أنشطة وسلع التجار وفق قواعد ونظم معينة .

أولا : تنظيم الأسواق

لقد كانت مدن المغرب الأقصى على غرار مدينة فاس ، تحوي عددًا من الأحياء التجارية ، يظم كل حيّ مجموعة من الأسواق و يختص كل واحد منها بنوع معين من السلع التجارية (٧٩) ، ولرسم صورة واضحة لأسواق المغرب الأقصى ، ينقل لنا حسن الوزان وصفًا دقيقًا لقيسارية فاس بقوله : « هذا السوق شبه مدينة صغيرة مسورة بجدران ينفتح فيها إثنا عشر بابًا ، يعترض كل باب منها سلسلة تمنع الخيل وسائر الدواب من الدخول إليه . وينقسم هذا السوق إلى خمسة عشر حيًا ، إثنان مخصصان للخرازين الذين يصنعون أحذية للأعيان لا يمكن للصناع ولا للجنود ولا لرجال الحاشية أن ينتعلوا مثلها وفي هذا المستوى من جمال الصنعة . وهناك حيان آخران مخصصان لتجار الأقمشة الحريرية ، ويبيع بعضهم الجدائل والطرر الخاصة بطقوم الخيل وغيرها من أنواع الزينة ، ويشغلون نحو خمسين دكانًا ، بينما يبيع الآخرون الحرير الملون لتطريز القمصان والوسائد ، ولهم نفس عدد الدكاكين بالتقريب ... ويأتي بعد ذلك حيان آخران يشغلهما نجار الأقمشة الصوفية ، أي المستوردة من أروبا ، وكلهم أندلسيون ... ثم يأتي مكتب محصل الضرائب ...وبعد ذلك يحتل الخياطون ثلاثة أحياء ، بعدها حي خاص بالعمال ...ثم حي لتجار

الكتان وتجار القمصان والأقمشة النسائية ...وأخيرًا هناك حي يعاد فيه بيع القمصان القديمة المصنوعة من الكتان ، والأغطية ، والفوط...إلخ » (٨٠)

ويضيف لنا الأنصاري السبتي وصفا آخر لأسواق مدينة سبتة بقوله : « وعدد الأسواق مائة وسبعون سوقًا ، تخص منها المدينة بمائة وإثنين وأربعين سوقًا، والأرباض الثلاثة العامرة بإثنين وثلاثين ، ومن أشرفها قدرًا وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم ، وسماط العدول الموثقين . »(٨١)

وأهتم سلاطين بنومرين ومن بعدهم بني وطاس على غرار أسلافهم الموحدين بإقامة الفنادق وتجديدها لأهميتها الإقتصادية، فهي موضع إقامة التجار والغرباء ممن لهم أثر كبير في الحركة التجارية ، فضلاً عن كونها مخازن لمختلف أنواع السلع والبضائع ، حيث كان التجار الوافدون يخزنون فيها بضائعهم لتوزيعها بعد ذلك على التجار بالجملة . (٨٢)

ويشير الأنصاري أن عدد الفنادق بمدينة سبتة ثلاثمائة وستون فندقًا « أعظمها بناءً وأوسعها ساحة الفندق الكبير المعد لإختزان الزرع ، وهذا الفندق من بناء محمد أبي القاسم العزفي... ويليه في الكبر من

الفنـادق المعدة لسكنى النـاس وغيرهم الفنـدق المعروف بفندق غانم ...وأبدعها صنعة فندق الوهراني ... » (٨٣)

ولتنظيم الحركة التجارية داخل الأسواق ، وجد الحمالون والبغالين لنقل البضائع والسلع بين الأحياء والدكاكين ، ويقومون بمهامهم بترخيص من عامل المدينة ، ولهم أمين يفصل في نزاعاتهم ، كما وجد الدلالون في زقاق خاص بهم ، وهم عبارة عن وسطاء بين التاجر والمشتري ، يقومون بنقل السلعة من دكان إلى اخر مبتغين فيها أعلى الأثمان . (٨٤)

وإلى جانب الفنادق والقيسريات ، تشير إحدى النوازل أن بعض النسوة في المغرب كنّ يبعن السلع عند أبواب دورهن ، وفي ذلك يذكر الونشريسي أن إمرأة مغربية كانت تبيع الزيتون عند باب دارها ، مقابل أجر معين يعرف بالسمسرة (٨٥)، كما كان بعض الباعة من المسلمين وأهل الذمة يتصدرون لبيع السلع للنساء في الدور ، وكان النساء يخرجن إليهم سافرات الوجه عندما يشتد الحرّ في فصل الصيف (٨٦).

ولوضع حدٍ لظاهرة الغش والتدليس وإحتكار السلع ، خضعت إدارة أسواق المغرب الأقصى لأمناء الأسواق الذين كانوا تحت إشراف ولاة الأمر حيث يسألون عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم ، ويذكر

الونشريسي أنه : « ينبغي للوالي أن يتحرى العدل وأن ينظر في أسواق رعيته ، ويأمر أوثق من يعرف ببلده أن يتعاهد السوق ويعير عليهم صنجتهم وموازينهم ومكاييلهك كلها ، فمن وجد غير ذلك شيئأ عاقبه على قدر مايرى من جرمه وإفتياته على الوالي وإخراجه من السوق حتى تظهر منه التوبة . » (٨٧)

ثانيًا : المكاييل والموازين

إستخدم سكان مدينة فاس وباقي مدن المغرب الأقصى في تعاملاتهم اليومية ، وفي شراء إحتياجتهم من البضائع والسلع ، عددًا من المكاييل والموازين التي أشارت إليها العديد من المصادر(٨٨) والتي لاتختلف في مجملها عما هو متعامل به في دول المغرب الإسلامي ومن أهمها :

١- المد القروي أو المغربي :

حدد البكري سعته بقوله : « ومدهم يسع من الطعام ثمانين أوقية » ويطلق على هذا المد إسم اللوح (٨٩) ، ويذكر الونشريسي أن المد النبوي كان يساوي مدًا وثمن مد قروي . (٩٠)

٢- الأوقية :

ذكرها البكري بإسم الأواقي ، جمع مفرده أوقية ، وهي وحدة وزن خصصت للمأكولات من زيت ،

وعسل ، ولبن ، وزبيب [٩١] ، والمعروف أن الرطل كان يساوي إثنتي عشر أوقية ، وعلى هذا فإن المد النبوي يزن ست عشرة أوقية[٩٢] ويضيف المنوني أن : الأوقية تقدر نقدا بتسعة وستون درهمًا . [٩٣]

٣- الوسق أو الصحفة :

يعادل الوسق أو الصحفة ستون صاعًا بالصاع النبوي ، وهو ماسعته كيلاً (٣٦٥,٥٤٤ لترًا) [٩٤]، والصاع الشرعي يعادل أربعة أمداد نبوية ، وهو مايساوي أربع حفنات ، وقد وقف الونشريسي على ذلك بنفسه فوجده صحيحاً . [٩٥]

٤- القنطار و المثقال :

فالقنطارمقداره الشرعي مائة رطل [٩٦]، أما المثقال فهو وحدة وزن صغيرة وزنه (٠٤,٧٢ غرام) يستخدم لوزن الذهب والفضة والمواد الثمينة . [٩٧]

ثالثًا : التجارة الداخلية والخارجية للمغرب الأقصى

١- التجارة الداخلية :

بفضل التنظيم المحكم لأسواق المغرب الأقصى وحسن إدارتها وتسيرها إلى جانب وفرة الإنتاج وتنوعه ، تحولت أكبر مدن المغرب لاسيما مدينة فاس إلى

عاصمة إقتصادية تشد إليها الركائب وتقصدها القوافل التجارية القادمة من مدن أخرى للبيع و الإستزادة من السلع والبضائع والأمتعة الحسنة . (٩٨) ويشير الجزنائي إلى ذلك بقوله : « ومنها مَيلُ الناس لسكناها ، فقد سكنها جملة من أصناف الناس ، وأهل الكور والأمصار ، وأنتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، فليس من أهل بلد ولا إقليم إلاّ ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف ، وأجتمع فيها ماليس في مدينة من بلدان الدنيا ، وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر، وسيقت إليها خيرات الأرض ، وحمعت فيها دخائر الدنيا . » (٩٩)

لقد تحولت متاجر فاس ودكاكينها إلى أسواق رائجة بمختلف البضائع والسلع والأمتعة الحسنة ، حيث قصدها تجار مكناسة بأنواع مختلفة من العنب والزيتون ، وكانوا يعودون بدورهم إلى مدينتهم بالسلع الضرورية من مدينة فاس ، ويشير إلى ذلك الزهري بقوله : فمن مدينة مكناسة وهي كثيرة الخير ، يحمل منها كثير من الزيتون والعنب إلى مدينة فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى ، ومنها تحمل الحبة الحلوة والكثرونة والشنون إلى غيرها من البلاد . (١٠٠)

ويضيف الوزان : ويجنى منها (مكناسة) العنّاب بكثرة كل عام ، وتحمل منه كمية طيبة إلى فاس لبيعها ، أما الزيتون فتجنى منه مقادير لا حد لها ولا نهاية ، ويباع القنطار منه بمثقال ونصف أي مايعادل مائة رطل إيطالي ، في حين تنقل كميات وفيرة من مادة الكتان إلى فاس ، وسلا ومدن أخرى . (١٠١)

أما أسواق مدينة مكناسة فتعقد كل يوم إثنين ، ويحج إليها كثير من أعراب المناطق المجاورة ، يأتون بأبقارهم وأغنامهم وسائر أصناف الماشية ، ويحملون كذلك السمن والصوف ، ويباع كل ذلك بأبخس الأثمان . (١٠٢)

كما قام تجار مدينة مراكش بتصدير كميات وفيرة من الورد المقطر العطر و الزيت والنحاس والسكر إلى مدينة فاس ومدن أخرى من المغرب (١٠٣) ، وجلب التجار اللوز من مدينة صفرو ، كما حملت أحمال التين المدبب من حصن مغيلة إلى مدينة فاس . (١٠٤)

ووصفت تجارة فاس مع مدينة إقليم تادلة بأنها نافقة حيث كان لتجار الإقليم دورًا رئيسيًا في ترويج وبيع سلع خاصة مصنوعة في مدينة فاس كالأقمشة الكتانية والسكاكين والسيوف والسروج واللجامات والقلانس وأدوات الخياطة ، فإذا أراد التجار بيع هذه السلع عن

طريق المبادلة سهل عليهم ذلك ، لأن لأهل تادلة بضائع محلية مختلفة ، كالرقيق والخيل والبرانس والنيلة والجلود ، وإذا أرادوا بيعها نقدًا كان عليهم أن يخفّضوا الثمن كثيرًا . (١٠٥)

ونظرًا لوفرة عدد من السلع والبضائع المحلية في إقليم هكسورة كالجلود المدبوغة ، والأصواف ، والسروج البديعة ، فقد فضّل تجار مدينة فاس مقايضة أقمشتهم الكتانية بالجلود والسروج وبضائع أخرى ، حققوا من خلالها أرباحًا كبيرة . (١٠٦)

ولضمان وصول السلع والبضائع من و إلى مدن المغرب الأقصى، كانت القوافل التجارية تسلك طرقًا مختلفة ذكرها العديد من الجغرافيين كالإدريسي الذي يتقل لنا وصفًا دقيقًا بقوله : « وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة فالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس ، ومن فاس إلى صفرو إلى تادلة إلى أغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة . » (١٠٧)

ويذكر عبد الواحد المراكشي طريقًا آخر يربط بين المدن المغربية من أقصى الشرق إلى الجنوب تقع عليه مدينة فاس ، يمر بين مدينة بجاية وتلمسان ثم فاس ثم مراكش وأخيرًا سجلماسة .

٢- التجارة الخارجية :

لقد كانت حيوية المبادلات التجارية داخل مدن المغرب الأقصى ، في ظل وفرة الإنتاج وتنوعة ، و فضلاً عن الجهود المبذولة من قبل سلاطين بني مرين وبني وطاس في توفير الأمن وحماية الطرق التجارية برًا وبحرًا عاملاً مشجعًا لتنشيط حركة التجارة الخارجية بين مدينة فاس ومختلف الدول والأقطار. (١٠٨)

ويشير الزهري إلى ذلك بقوله : « وهي دار مملكة يقصدها الناس من جميع الأقطار، وإليها يجلب من جميع الأقاليم كل شيىء حسن من المتاع والسلع الغالية الأثمان من اليمن والعراق والشام والأندلس . » (١٠٩)

لقد شهدت الحركة التجارية نشاطًا كبيرًا بين مدن المغرب الأقصى وجنوب الصحراء ، فتدفق تجار مدينة أغمات « إلى السودان بأعداد الجمال المحملة بقناطير من النحاس الأحمر والملون والأكسية ، وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار ، وضروب من الأفاويه والعطر وألات الحديد المصنوع . » (١١٠)

وقصد تجار مدينة فاس مدينة جني ، التي وصفت بأنها سوق مربحة للتجار المحليين « حيث يحقق أهلها أرباحًا هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأروبية والنحاس

والصفر والسلاح مثل الخناجر ، والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك ، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعسل . » (١١١)

وإلى جانب السلع والبضائع المتبادلة بين مدن المغرب الأقصى وبلاد السودان ، كانت تجارة الرقيق تكتسي أهمية خاصة من حيث كونها سلعة مربحة لفئة معينة من التجار ، حيث يذكر كربخال (١١٢) أن لهم سوقًا رائجة بمدينة فاس ، يباع فيها الزنوج (١١٣) من الجنسين ، ويضيف البكري أن سعر الواحدة منهن ممن يتقن فن الطبخ مائة مثقال . (١١٤)

ونظرًا لحيوية الموقع الجغرافي وشساعة الشريط الساحلي المطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، فقد لعبت المدن الساحلية دور رئيسي في إستقبال وتوجيه القوافل عبر مختلف الموانئ التي قامت بدورها في الحركة التجارية كما ينبغي .

ومن هذه الموانئ ميناء مدينة سبتة وهو مكان على ساحل البحر ومحطة للسفن والقوافل التجارية المحملة بسلع مختلفة كالعصير والحرير والكتان الموجه إلى أروبا . (١١٥)أما ميناء طنجة الذي لايبعد عن مدينة فاس أكثر من خمسين فرسخًا فقد ساهم بدوره الريادي في

إستقبال وتصريف منتجات مدينة فاس والمناطق الداخلية المحيطة بها من ألبسة وثياب و كتان وحرير ، وأنواع مما لذّ وطاب من الفواكه وغيرها من المنتجات . (١١٦)

وقد كان التجار من نصارى الأندلس يقصدون مدينة سلا الميناء الرئيسي لفاس ، وبخاصة الجنويون منهم الذين كانوا يروجون تجارة واسعة بكل من فاس وسلا ، ولذلك كانوا يحضون برعاية السلطان ، إذ كانت تجارتهم تحقق دخلاً كبيرًا لخزينة الدولة ، وكانوا ينفقون أموالاً طائلة في سبيل إستمالة رجال البلاط وشخصيات الدولة . (١١٧)

وكانت ترودانت في الجهة المقابلة محطة للقوافل التجارية القادمة من مختلف مدن المغرب الأقصى المحملة بسلع مختلفة كالجلود والتبر وريش النعام والصمغ والأسلحة ومما كان يحمله السود من السنغال . (١١٨)

أما عن المنتجات التي إستوردا بنومرين من بلاد الأنداس فقد شملت ألات الصفر ، والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة ، وبعض الأحواض الرخامية للبناء والزينة . (١١٩)

ومما شجع التبادل التجاري بين مدن المغرب الأقصى وبلاد المشرق قوافل الحجّاج على طول

الطريق الرابط بين فاس وتلمسان مرورًا بالإسكندرية وصولاً إلى بلاد المشرق ، حيث يذكر إبن عذارى رحلة تاجر سافر من تلمسان إلى فاس ، وكان ذا رحل كبير ومال ، فباع وأشترى ، ثم واصل طريقه من فاس إلى الإسكندرية وبلاد المشرق ، راجعًا مرة أخرى إلى فاس (١٢٠) .

وقد لعب التجار اليهود دورًا هامًا في التجارة العامة مع دول المشرق ، بحكم علاقاتهم العائلية و مكانتهم الإقتصادية ، حيث كانوا يشكلون طبقة متميزة عن بقية التجار المغاربة ، بفضل غنائهم و إشتغالهم في الحرف والمهن المربحة كالصياغة والصيرفة والمعادن ، وإمتلاكهم لوكلاء تجاريين ينوبون عنهم . (١٢١)

الخاتمة :

استفاد الاقتصاد المريني من التطور الحاصل في القطاعات الانتاجية بفضل حالة الأمن والاستقرار الذي ساد الجبهة الداخلية ، فازدهر بجميع فروعه ومقوماته لا سيما في حاضرة فاس ومختلف مدن المغرب الأقصى في عهد الدولة المرينية ، ذلك بفضل توفر الإمكانات وتنوعها، واهتمام العنصر البشري والسلطة الحاكمة بمختلف الأنشطة الاقتصادية، فازدهرت الزراعة و كثر إنتاجها ، و تنوعت الصنائع والحرف

مع توسع العمران و توفر المواد الخام ، وبفضل الجهود المبذولة في توفير الأمن وحماية الطرق التجارية برًا وبحرًا ، شهدت حركة التجارة الخارجية نشاطا متميزا بين مدن المغرب الأقصى ومختلف الدول والأقطارمن الضفتين خاصة في أوقات السلم ، عن طريق شبكة الطرق البرية والموانئ الهامة مثل هنين و المرسى الكبير و تنس و سبتة وأصيلا وطنجة و غيرها خاصة مع بلاد السودان الغربي،مما أنعش الحياة الاقتصادية

هوامش البحث :

(١) إبن حوقل أبو القاسم محمد النصيبي (ق ٤ هـ / ١٠ م) ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢ / ٧٩ – ٨٨ ، محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم للنشر والتوزيع ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٨٧ / ٢٨٨

(٢) المراكشي أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد (٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ / ٧٩

(٣) يتوفر المغرب الأقصى على عدد هام من الأنهار مثل : نهر ملوية الذي ينبع فيما بين تلمسان ورباط تازة ويصب في البحر المتوسط ، ونهر سبو الذي يحيط بمدينة فاس شرقها وغربها ، ونهر ورغة المجاور لنهر سبو ويصب كلالهما في البحر المحيط ، ونهر أم الربيع وأبو الرقراق بين سلا ومراكش ، وينبعان من جبال صنهاجة ويصبان في البحر المتوسط ويتفردان بوفرة مياههما وإنتظام جريانهما ، ونهر شفشاوة وهوببلاد حاحة ويصب في البحر . أنظر :

ياقوت الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٨ م) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٧ ، ، ٤/ ٢٣٠ ، مارمول كربخال (ق ١٠ هـ / ١٦م) ، إفريقيا ، تحقيق محمد حجي وآخرون ، مطبعة المعارف ، الرباط ، ١٩٤٨ ، ٢/ ٢٧ – ٢٨ ، الإدريسي ، أبو عبد الله

محمد بن محمد (ت ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م) ، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، د.ت ، ٥ / ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦

(٤) الجزنائي أبو الحسن علي علي (ق٠٨ هـ) ، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب إبن منصور ، المطبعة الملكية ، ،ط ٢ ، الرباط ، ١٩٩١ / ٣٥

(٥) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢ ،٥ / ١٥٣ ، الزهري ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق ٠٦ هـ / ١٢ م) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق : محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت / ١١٤

(٦) إبن عذارى أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيًا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتّاني ، محمد بن تاويت ، محمد زتيبر ، عبد القادر رزمانة ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٥ / ١٦

(7) أحمد جمال طه : الحياة الاجتماعية في المغرب الأقصى في العصر الإسلامي ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ ، / ٢٠٣

(8) إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ – من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين – دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٨ ، ٢ / ١٥٠

(9) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ٥ / ١٥٤- ١٥٥ ، الزهري ، م.س / ١١٥- ١٤٠ ، الإدريسي ، م.س / ٢٤٧ ،

(10) الزهري ، م.ن / ١١٤

(11) مجهول ، الإستبصار في عجائب الأمصار ،نشر وتعليق سعيد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ،١٩٨٧/ ١٨٤ ، الزهري ، م.ن ص.ن ، كربخال ، م.ن ، ١ / ٣٦ ، الإدريسي ، م.س / ٢٤٢- ٢٤

(12) الإدريسي ، م.ن / ٢٣٥

(13) الإدريسي ، م.ن / ٢٣٣ – ٢٣٤ ، روجيه لوترنو ، فاس في عصر بني مرين ، ترجمة نيقولا زيادة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ / ٥٦

(14) إبن القاسم محمد الأنصاري السبتي ، إختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط ٢ ، الرباط ، ١٩٨٣ / ٤٠ ، القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٥٧ - ١٥٨

(15) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٥٩
(16) الإدريسي ، م.ن / ٢٣٤
(17) مجهول ، الإستبصار في عجائب الأمصار ،نشر وتعليق سعيد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ،١٩٨٧/ ١٨٠ ، الإدريسي ، م.ن / ١٥٧، كربخال ، م.س ، ٢ / ١٦٠
(18) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٦٠
(19) لوترنو ، م.س / ٥٦
(20) إبن حوقل ، م.س / ٨٠ – ٨١ ، الإدريسي ، م.س / ٢٢٩ – ٢٣٧- ٢٤٢ ، الزهري ، م.س / ١١٤- ١١٥
(21) القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٧٥
(22) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٨٠ – ١٨١، جمال أحمد طه ، م.س / ٢٠٦
(23) الوزان الحسن بن محمد ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٢ / ٣٠١ -٣٠٢
(24) إبن حوقل ، م.س / ٨٠ – ٨١ ، مارمول ، م.س / ١٨٤ ، القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٦٤
(25) القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٥٧
(26) كربخال ، م.س ، ١ / ١٦٢ ، جمال أحمد طه ، م.س / ٢٠٧ ، المنوني محمد : ورقات عن الحضارة المغربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطابع أطلس ، المغرب ، ١٩٧٩ / ١١١
(27) ابراهيم حركات ، م.س / ١٥٠
(28) القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٧١
(29) القلقشندي ، م.ن ، ٥ / ١٥٨ -١٧٦ ، المنوني ، م.س / ١١٢
(30) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٨٤
(31) القلقشندي ، م.ن ، ٥ / ١٧٥ -١٧٦
(32) إبن أبي زرع علي بن عبد الله الفاسي (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والنشر ، الرباط ، ١٩٧٢ / ٤٤
(33) إبن أبي زرع ، م.ن / ٤٥
(34) الزهري ، م.س / ١١٥
(35) المقدسي شمس الدين أبو عبد الله ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٧٧ / ٢٣١

(36) الوزان ، م.س ، ٢ / ٣١١
(37) الوزان ، م.ن ، ٢ / ٣١٤
(38) إبن غازي المكناسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م) ، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، الرباط ، ١٩٥٢/ ٤
(39) القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٧٦
(40) القلقشندي ، م.ن ، ٥ / ١٧٦ -١٧٧
(41) الجزنائي ، م.س / ٣٥
(42) مجهول ، م.س / ١٨٤ - ١٨٥
(43) جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، م.س / ٢١٠ ، محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم للنشر والتوزيع ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٨٧ / ٢٨٤
(44) الجزنائي ، م.س / ٤٤ ، إبن أبي زرع ، م.س / ٤٨
(45) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد (ت ٩١٤ هـ ، ١٥٠٨ م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ ، ٥ / ١٣٦ - ١٣٧ ، كمال كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ / ٦٦
(46) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د.ت / ١٧١
(47) البكري ، م.ن / ٧٠ - ١٠٩
(48) الإدريسي ، م.س / ٢٤١
(49) الزهري ، م.س / ١١٥
(50) مجهول ، م.س / ١٨١
(51) مجهول ، م.ن / ٢١٦ ، البكري ، م.س / ١٥٣ – ١٥٩
(52) الجزنائي أبو الحسن علي علي (ق٠٨ هـ) ، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب إبن منصور ، المطبعة الملكية ، ،ط ٢ ، الرباط ، ١٩٩١ / ٣٥ ، إبن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م) ،جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ١ /٤٤

(53) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٥٩ ، إبن القاضي ، م.ن ، ١ /٤٤ ، إبن أبي زرع ، م.س / ٣٥ - ٣٦ ،
(54) جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، م.س / ٢١٠
(55) كربخال ، م.س ، ٢ /١٤٨ – ١٤٩، الوزان ، م.س ، ١ / ١٧١ – ١٨٤
(56) إبن أبي زرع ، م.س / ٦٣
(57) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٤٩
(58) لوترنو ، م.س / ١٣٣
(59) لوترنو ، م.ن ص.ن
(60) كربخال ، م.س ، ٢ /١٤٨ – ١٥١- ١٥٣
(61) إبن غازي المكناسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) ، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، الرباط ، ١٩٥٢ /٠٤ ، لوترنو ، م.س / ١٢٨
(62) جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، م.س / ٢١٤
(63) لوترنو ، م.س / ١٢٩
(64) لوترنو ، م.ن / ١٢٨
(65) إبن أبي زرع ، م.س / ٤٨ ، الجزنائي ، م.س / ٤٤
(66) كربخال ، م.س ، ٢ /١٥٢
(67) القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٧٦
(68) الحريري ، م.س / ٢٨٥
(69) لوترنو ، م.ن / ١٣٩
(70) إبن أبي زرع ، م.س / ٥٨ – ٦٤ – ٧٠ ، الجزنائي ، م.س / ٧٣
(71) إبن أبي زرع ، م.ن / ٦٤ - ٦٦ ، الجزنائي ، م.ن / ٧٢ - ٧٣
(72) إبن أبي زرع ، م.ن / ٦٦
(73) أنظر ترجمته في : الونشريسي أبو العباس ، الوفيات ،تحقيق محمد حجي ، دار المغرب ، الرباط ، ١٩٧٦ / ٢٦٠ ، إبن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حيا سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م) ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، إعتنى بمراجعته محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، ١٩٠٨ / / ٢١٩ - ٢١٩ ، التنبكتي أحمد بابا (ت ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم الهرامة عبد الحميد عبد الله ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط١ ، طرابلس – ليبيا ، ١٩٨٩ / ٥٤٣
(74) إبن أبي زرع ، م.ن / ٥٠ -٥١

(75) إبن أبي زرع ، م.ن / ٥٣
(76) إبن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) ، المقدمة ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، ٢٠٠٠ / / ٣٢٣ - ٣٢٤
(77) المنوني ، م.س / ٩٩
(78) ابراهيم حركات ، م.س / ١٤١ - ١٤٣ المنوني ، م.س / ٩٧ – ٩٨ - ٩٩
(79) الونشريسي ، المعيار ، م.س ٣ / ١٥٧ - ٢١٧ ، الوزان ، م.س / ٢٤٠ ، كمال السيد أبو ممصطفى ، م.س / ٧٠
(80) الوزان ، م.س / ٢٤٠ - ٢٤١
(81) إبن القاسم محمد الأنصاري السبتي ، إختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط ٢ ، الرباط ، ١٩٨٣ / ٣٦
(82) الونشريسي ، المعيار ،م.س ٦ / ٤٢٦ ، كمال السيد أبو ممصطفى ، م.س / ٧٤ ، الحريري ، م.س / ٢٩٣
(83) الأنصاري السبتي ، ، م.س / ٣٨ - ٣٩
(84) كربخال ، م.س / ١٤٩ ، الونشريسي ، المعيار ،م.س ٦ / ٧٨، جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، م.س / ٢٢٦
(85) الونشريسي ، المعيار ،م.ن ٦ / ٧٨
(86) الونشريسي ، المعيار ،م.ن ٥ / ١٩٧ ، كمال السيد أبو ممصطفى ، م.س / ٧١
(87) الونشريسي ، المعيار ،م.ن ٦ / ٤٠٧
(٨٨) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ١ / ٣٩٩ ،١ / ٣٩٩ ، ٢ / ٧٣ - ٧٤ ، ٣ / ٢٧٦ ، ٤ / ٣٩٠ ، ٥ / ١٤ - ٩٠ ، ٨ / ١٤٤ ،١١ / ١٤٤ ، إبن أبي زرع ، م.س / ٦٦ – ٦٧ - ٢٧٠ ، القلقشندي ، م.س ، ٥ / ١٧٧ ، البكري ، م.س / ١١٧ ، مجهول ، م.س / ١٨٤ ، إبن القاضي ، م.س /٥٤٩
(89) البكري ، م.س / ١١٧
(90) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ٢ / ٧٣ - ٧٤ ، ٤ / ٣٩٠
(91) البكري ، م.س / ١١٧
(92) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ١ / ٣٩٩
(93) المنوني ، م.س / ١٠٤

(94) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ٥ / ٩٠ ، ٨ / ١٤٤ ، إبن القاضي ، م.س /٥٤٩ ، المنوني ، م.س / ١٠٤
(95) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ٥ / ٩٠ ، ٨ / ١٤٤، كمال السيد أبو ممصطفى ، م.س / ٨٢
(96) البكري ، م.س / ٩١ ، إبن أبي زرع ، م.س / ٦٦ - ٦٧ ، مجهول ، م.س / ١٨٤
(97) روبير برونشفيك ، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م ، ترجمة حمادي الساحلي ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيرروت ، ١٩٨٨ ، ٢ / ٢٦٠
(٩٨) الإدريسي ، م.س / ٢٤٦
(٩٩) الجزنائي ، م.س / ٣٩
(١٠٠) الزهري ، م.س / ١١٥
(١٠١) الوزان ، م.س ، ١ / ٢١٤
(١٠٢) الوزان ، م.ن ، ١ / ٢١٥
(١٠٣) الزهري ، م.س / ١١٦
(١٠٤) مجهول ، م.س / ١٩٣
(١٠٥) الوزان ، م.س ، ١ / ١٧٧
(١٠٥) الوزان ، م.ن ، ١ / ١٦٧
(١٠٦) الإدريسي ، م.س / ٢٤٩
(١٠٧) المراكشي عبد الواحد ، م.س / ٤٢
(١٠٨) الحريري ، م.س / ١١٧
(١٠٩) الزهري ، م.س / ١١٤
(١١٠) الإدريسي ، م.س / ٢٣٢
(١١١) الوزان ، م.س ، ٢ / ١٦٢ - ١٦٣
(١١٢) كربخال ، م.س ، ٢ / ١٥٣
(١١٣) عن جمال وزينة الزنوج وصفاتهم الفيزيولوجية خاصة النساء منهم . أنظر : الزهري ، م.س / ١٢٢ ، البكري ، م.س / ١٥٨ - ١٥٩
(١١٤) البكري ، م.س / ١٥٨
(١١٥) المقري ، نفح الطيب ، م.س ، ٦ / ٢١٠
(١١٦) البكري ، م.س / ١٠٩ - ١١١
(١١٧) حركات ، م.س / ٢٤٧

(١١٨) حركات ، م.ن ، ص .ن
(١١٩) الحريري ، م.س / ٢٩٥
(١٢٠) إبن عذارى المراكشي أبو العباس أحمد (كان حيًا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتّاني ، محمد بن تاويت ، محمد زتيبر ، عبد القادر رزمانة ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٥ / ٨١
(١٢١) مجهول ، م.س / ٢٠٢